سورة الإخلاص

المشهور في تسميتها في عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) وفيما جرى من لفظه وفي أكثر ما روي عن الصحابة تسميتُها (سورة قل هو الله أحد) .

روى الترمذي عن أبي هريرة ، وروى أحمد عن أبي مسعود الأنصاري وعن أم كلثوم بنت عقبة (أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : (قل هو الله تعدِل ثلث القرآن) وهو ظاهر في أنه أراد تسميتها بتلك الجملة لأجل تأنيث الضمير من قوله : (تَعدل) فإنه على تأويلها بمعنى السورة .

وقد روي عن جمع من الصحابة ما فيه تسميتها بذلك ، فذلك هو الاسم الوارد في السنة .

ويؤخذ من حديث البخاري عن إبراهيم عن أبي سعيد الخدري ما يدل على أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : (اللهُ الواحد الصمد) ثُلُثُ القرآن فذكر ألفاظاً تخالف ما تقرأ به ، ومحمله على إرادة التسمية . وذكر القرطبي أن رجلاً لم يسمه قرأ كذلك والناس يستمعون وادعى أن ما قرأ به هو الصواب وقد ذمه القرطبي وسبّه .

وسميت في أكثر المصاحف وفي معظم التفاسير وفي (جامع الترمذي) : (سورة الإخلاص) واشتهر هذا الاسم لاختصاره وجمعه معاني هذه السورة لأن فيها تعليم الناس إخلاص العبادة لله تعالى ، أي سلامة الإعتقاد من الإشراك بالله غَيره في الإلاهية .

وسميت في بعض المصاحف التونسية (سورة التوحيد) لأنها تشتمل على إثبات أنه تعالى واحد .

وفي (الإتقان) أنها تسمى (سورة الأساس) لاشتمالها على توحيد الله وهو

" صفحة رقم 610 "

أساس الإسلام . وفي (الكشاف) : روى أبي وأنس عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أُسَّتْ السماوات السبع والأرضون السبع على) قل هو الله أحد . يعني ما خلقت إلا لتكون دلائل على توحيد الله ومعرفة صفاته .

وذكر في الكشاف (: أنها وسورة الكافرون تسميانِ المقشقشتين ، أي المبرئتين من الشرك ومن النفاق .

وسماها البقاعي في (نظم الدرر) (سورة الصمد) ، وهو من الأسماء التي جمعها الفخر . وقد عقد الفخر في (التفسير الكبير) فصلاً لأسماء هذه السورة فذكر لها عشرين اسماً بإضافة عنوان سورة إلى كل اسم منها ولم يذكر أسانيدها فعليك بتتبعها على تفاوت فيها وهي : التفريد ، والتجريد (لأنه لم يذكر فيها سوى صفاته السلبية التي هي صفات الجلال) ، والتوحيد (كذلك) ، والإخلاص (لما ذكرناه آنفاً) ، والنجاة (لأنها تنجي من الكفر في الدنيا ومن النار في الآخرة) ، والولاية (لأن من عرف الله بوحدانيته فهو من أوليائه المؤمنين الذين لا يتولون غير الله) والنِّسبة (لما روي أنها نزلت لما قال المشركون : أنسُب لنا ربك ، كما سيأتي) ، والمعرفة (لأنها أحاطت بالصفات التي لا تتم معرفة الله إلا بمعرفتها) والجَمال (لأنها جمعت أصول صفات الله وهي أجمل الصفات وأكمَلها ، ولما روي أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : (إن الله جميل يحب الجمال) فسألوه عن ذلك فقال : أحد صمد لم يلد ولم يولد) ، والمقَشْقِشَة (يقال : قشقش الدواءُ الجرب إذا أبرأه لأنها تقشقش من الشرك ، وقد تقدم آنفاً أنه اسم لسورة الكافرون أيضاً) ، والمعوِّذة (لقول النبي (صلى الله عليه وسلم) لعثمان بن مظعون وهو مريض فعوّذه بها وبالسورتين اللتين بعدها وقال له : (تعوّذ بها) . والصمد (لأن هذا اللفظ خص بها) ، والأساس (لأنها أساس العقيدة الإسلامية) والمانعة (لما روي : أنها تمنع عذابَ القبر ولفحات النار) والمِحْضَرْ (لأن الملائكة تحضر

لاستماعها إذا قُرئت) . والمنفِّرة (لأن الشيطان ينفر عند قراءتها) والبرّاءة (لأنها تبرِّىءُ من الشرك) ، والمذَكِّرة (لأنها تذكر خالص التوحيد الذي هو مودَع في الفطرة) ، والنور (لما روي : أن نور القرآن قل هو الله أحد) ، والأمان (لأن من اعتقد ما فيها أمن من العذاب) .

" صفحة رقم 611 "

وبضميمة اسمها المشهور : (قل هو الله أحد (تبلغ أسماؤها اثنين وعشرين . وقال الفيروز آبادي في (بصائر التمييز) : إنها تسمى الشافية فتبلغ واحداً وعشرين اسماً .

وهي مكية في قول الجمهور ، وقال قتادة والضحاك والسدي وأبو العالية والقرظي : هي مدنية ونسب كلا القولين إلى ابن عباس .

ومنشأ هذا الخلاف الاختلاف في سبب نزولها فروى الترمذي عن أبيّ بن كعب ، وروَى عبيد العطار عن ابن مسعود ، وأبو يعلى عن جابر بن عبد الله : (أن قريشاً قالوا للنبيء (صلى الله عليه وسلم) (انْسُبْ لنا ربك) فنزلت قل هو الله أحد إلى آخرها) فتكون مكية .

وروى أبو صالح عن ابن عباس : (أن عامر بن الطفيل وأرْبَد بن ربيعة (أخا لبيد) أتيا النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال عامر : إِلاَمَ تدعونا ؟ قال : إلى الله ، قال : صفه لنا أمن ذهب هُو ، أم من فضة ، أم من حديد ، أم من خشب ؟ (يحسب لجهله أن الإِلاه صنم كأصنامهم من معدن أو خشب أو حجارة) فنزلت هذه السورة ، فتكون مدنية لأنهما ما أتياه إلا بعد الهجرة .

وقال الواحدي : (إن أحبار اليهود (منهم حُيَيْ بن أخطب وكعب بن الأشرف) قالوا للنبيء (صلى الله عليه وسلم) صِف لنا ربّك لعلنا نؤمن بك ، فنزلت) .

والصحيح أنها مكية فإنها جمعت أصل التوحيد وهو الأكثر فيما نزل من القرآن بمكة ، ولعل تأويل من قال : إنها نزلت حينما سأل عامر بن الطفيل وأربدُ ، أو حينما سأل أحبارُ اليهود ، أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قرأ عليهم هذه السورة ، فظنها الراوي من الأنصار نزلت ساعتئذ أو لم يضبط الرواة عنهم عبارتهم تمام الضبط .

قال في (الإتقان) : وجمع بعضهم بين الروايتين بتكرر نزولها ثم ظهر لي ترجيح أنها مدنية كما بينته في (أسباب النزول) اه .

وعلى الأصح من أنها مكية عُدّت السورة الثانية والعشرين في عداد نزول السور نزلت بعد سورة الناس وقبل سورة النجم .

" صفحة رقم 612 "

وآياتها عند أهل العدد بالمدينة والكوفة والبصرة أربع ، وعند أهل مكة والشام خمس باعتبار) لم يلد (آية) ولم يولد (آية .

أغراضها

إثبات وحدانية الله تعالى .

وأنه لا يقصد في الحوائج غيره وتنزيهه عن سمات المحدثات .

وإبطال أن يكون له ابن .

وإبطال أن يكون المولود إلاهاً مثل عيسى عليه السلام .

والأحاديث في فضائلها كثيرة وقد صح أنها تعدل ثلث القرآن . وتأويل هذا الحديث مذكور في شرح (الموطأ) و (الصحيحين) .

) قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ (

افتتاح هذه السورة بالأمر بالقول لإظهار العناية بما بعد فعل القول كما علمت ذلك عند قوله تعالى : (قل يا أيها الكافرون ((الكافرون : 1)

ولذلك الأمر في هذه السورة فائدة أخرى ، وهي أنها نزلت على سبب قول المشركين : انْسُبْ لنا ربك ، فكانت جواباً عن سؤالهم فلذلك قيل له : (قل (كما قال تعالى : (قل الروح من أمر ربي ((الإسراء : 85) فكان للأمر بفعل) قل (فائدتان .

وضمير) هو (ضمير الشأن لإفادة الاهتمام بالجملة التي بعده ، وإذا سمعه الذين سألوا تطلعوا إلى ما بعده .

ويجوز أن يكون) هو (أيضاً عائداً إلى الرب في سؤال المشركين حين قالوا : انسب لنا ربك .

ومن العلماء من عَدّ ضمير) هو (في هذه السورة اسماً من أسماء الله تعالى وهي طريقة صوفية درج عليها فخر الدين الرازي في (شرح الأسماء الحسنى) نقله

" صفحة رقم 613 "

ابن عرفة عنه في (تفسيره) وذكر الفخر ذلك في (مفاتيح الغيب) ولا بد من المزج بين كلاميه .

وحاصلهما قوله : (قل هو الله أحد (فيه ثلاثة أسماء لله تعالى تنبيهاً على ثلاثة مقامات .

الأول : مقام السابقين المقربين الناظرين إلى حقائق الأشياء من حيث هِيَ هِيَ ، فلا جرم ما رأوا موجوداً سوى الله لأنه هو الذي لأجله يجب وجوده فما سوى الله عندهم معدوم ،

فقوله : (هو (إشارة مطلقة . ولما كان المشار إليه معيناً انصرف ذلك المطلق إلى ذلك المعين فكان قوله : (هو (إشارة من هؤلاء المقربين إلى الله فلم يفتقروا في تلك الإشارة إلى مميز فكانت لفظة) هو (كافية في حصول العرفان التام لهؤلاء .

المقام الثاني : مقام أصحاب اليمين المقتصدين فهم شاهَدُوا الحق موجوداً وشاهدوا الممكنات موجودة فحصلت كثرة في الموجودات فلم تكن لفظة) هو (تامة الإِفادة في حقهم فافتقروا معها إلى مميز فقيل لأجلهم) هو الله).

والمقام الثالث : مقام أصحاب الشمال وهم الذين يجوزون تعدد الإِلاه فقُرن لفظ) أحد (بقوله : (هو الله (إبطالاً لمقالتهم ا هـ .

فاسمه تعالى العلَم ابتدىء به قبل إجراء الأخبار عليه ليكون ذلك طريق استحضار صفاته كلّها عند التخاطب بين المسلمين وعند المحاجَّة بينهم وبين المشركين ، فإن هذا الاسم معروف عند جميع العرب فمسماه لا نزاع في وجوده ولكنهم كانوا يصفونه بصفات تَنَزَّه عنها .

أما) أحد (فاسم بمعنى (وَاحِد) . وأصل همزته الواو ، فيقال : وحَد كما يقال : أحد ، قلبت الواو همزة على غير قياس لأنها مفتوحة (بخلاف قلب واو وُجوه) ومعناه منفرد ، قال النابغة :

كأنَّ رحلي وقد زال النهارُ بنا

بذي الجليلِ على مستأنِسسٍ وَحَدِ

أي كأني وضعتُ الرجل على ثورٍ وحْششٍ أحَسَّ بأنسيّ وهو منفردٌ عن قطيعه .

وهو صفة مشبهة مثل حَسَن ، يقال : وَحُد مثل كرُم ، ووَحِدَ مثل فرِح .

" صفحة رقم 614 "

وصيغة الصفة المشبهة تفيد تمكن الوصف في موصوفها بأنه ذاتيٌّ له ، فلذلك أوثر) أحد (هنا على (واحد) لأن (واحد) اسم فاعل لا يفيد التمكن . ف (واحد) و) أحد (وصفان مصوغان بالتصريف لمادة متحدة وهي مادة الوحدة يعني التفرد .

هذا هو أصل إطلاقه وتفرعت عنه إطلاقات صارت حقائق للفظ (أحد) ، أشهرها أنه يستعمل اسماً بمعنى إنسان في خصوص النفي نحو قوله تعالى : (لا نفرق بين أحد من رسله في البقرة ، وقوله : ولا أشرك بربي أحداً (في الكهف وكذلك إطلاقه على العدد في الحساب نحو : أحد عشر ، وأحد وعشرين ، ومؤنثه إحدى ، ومن العلماء من خلط بين (واحد) وبين) أحد (فوقع في ارتباك .

فوصف الله بأنه) أحد (معناه : أنه منفرد بالحقيقة التي لوحظت في اسمه العلَم وهي الإِلاهية المعروفة ، فإذا قيل : (الله أحد (فالمراد أنه منفرد بالإِلاهية ، وإذا قيل : الله واحد ، فالمراد أنه واحد لا متعدد فمَن دونه ليس بإلاه . ومآل الوصفين إلى معنى نفي الشريك له تعالى في إلاهيته .

فلما أريد في صدر البعثة إثبات الوحدة الكاملة لله تعليماً للناس كلهم ، وإبطالاً لعقيدة الشرك وُصف الله في هذه السورة ب) أحد (ولم يوصف ب (واحد) لأن الصفة المشبهة نهايةُ ما يُمكن به تقريب معنى وحدة الله تعالى إلى عقول أهل اللسان العربي المبين .

وقال ابن سينا في تفسير له لهذه السورة : إن) أحد (دالّ على أنه تعالى واحد من جميع الوجوه وأنه لا كثرة هناك أصلاً لا كثرةً معنوية وهي كثرة المقومات والأجناس والفصول ، ولا كثرة حسيّة وهي كثرة الأجزاء الخارجية المتمايزة عقلاً كما في المادة والصورة . والكثرة الحسية بالقوة أو بالفعل كما في الجسم ، وذلك متضمن لكونه سبحانه منزهاً عن الجنس والفصل ، والمادة والصورة ، والأعراض والأبعَاض ، والأعضاء ، والأشكال ، والألوان ، وسائر ما يُثلم الوحدة الكاملة والبَساطة الحَقَّة اللائقة بكرم وجهه عز وجل عن أن يشبهه شيء أو يساويه سبحانه شيء . وتبيينُه : أما الواحد فمقول على ما تحته بالتشكيك ، والذي لا ينقسم بوجه أصلاً أولى بالوحدانيَّة مما ينقسم من بعض الوجوه ، والذي لا ينقسم

انقساماً عقليّاً أوْلَى بالوحدانية من الذي ينقسم انقساماً بالحسّ بالقوة ثم بالفعل ، ف) أحد (جامع للدلالة على الوحدانية من جميع الوجوه وأنه لا كثرة في موصوفه اه .

قلت : قد فهم المسلمون هذا فقد روي أن بلالاً كان إذا عذب على الإسلام يقول : أحَد أحد ، وكان شعار المسلمين يوم بدر : أحَد أحَد .

والذي درج عليه أكثر الباحثين في أسماء الله تعالى أن) أحد (ليس ملحقاً بالأسماء الحسنى لأنه لم يرد ذكره في حديث أبي هريرة عند الترمذي قال : (قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إنَّ لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة) . وعدّها ولم يذكر فيها وصف أحد ، وذكر وصف واحد وعلى ذلك درج إمام الحرمين في كتاب (الإرشاد) وكتابِ (اللمع) والغزالي في (شرح الأسماء الحسنى) .

وقال الفهري في (شرحه على لُمع الأدلة) لإمام الحرمين عند ذكر اسمه تعالى (الواحد) .

وقد ورد في بعض الروايات الأحد فلم يجمع بين الاسمين في اسم .

ودرج ابن بَرَّجَان الإشبيلي في (شرح الأسماء) والشيخ مُحمد بن محمد الكومي (بالميم) التونسي ، ولُطف الله الأرضرُومي في (معارج النور) ، على عدّ (أحد) في عداد الأسماء الحسنى مع اسمه الوَاحد فقالا : الواحد الأحد بحيث هو كالتأكيد له كما يقتضيه عدهم الأسماء تسعة وتسعين ، وهذا بناء على أن حديث أبي هريرة لم يقتضضِ حصر الأسماء الحسنى في التسعة والتسعين ، وإنما هو لبيان فضيلة تلك الأسماء المعدودة فيه .

والمعنى : أن الله منفرد بالإلاهية لا يشاركه فيها شيء من الموجودات . وهذا إبطال للشرك الذي يدين به أهل الشرك ، وللتثليث الذي أحدثه النصارى المِلْكانية وللثانوية عند المجوس ، وللعَدَد الذي لا يُحصى عند البراهمة .

فقوله : (الله أحد (نظير قوله في الآية الأخرى : (إنما الله إلاه واحد ((النساء : 171) .
وهذا هو المعنى الذي يدركه المخاطبون بهذه الآية السائلون عن نسبة الله ، أي حقيقته

" صفحة رقم 616 "

فابتدىء لهم بأنه واحد ليعلموا أن الأصنام ليست من الإلاهية في شيء .
ثم إن الأحدية تقتضي الوجود لا محالة فبطل قول المعطلة والدُّهريين .
وقد اصطلح علماء الكلام من أهل السنة على استخراج الصفات السلبية الربانية من معنى الأحدية لأنه إذا كان منفرداً بالإلاهية كان مستغنياً عن المخصِّص بالإيجاد لأنه لو افتقر إلى من يُوجده لكان من يوجده إلاهاً أوَّلَ منه فلذلك كان وجود الله قديماً غير مسبوق بعدم ولا محتاج إلى مخصص بالوجُود بدَلاً عن العدم ، وكان مستعيناً عن الإمداد بالوجود فكان باقياً ، وكان غنياً عن غيره ، وكان مخالفاً للحوادث وإلا لاحتاج مثلَها إلى المخصص فكان وصفه تعالى : ب) أحد (جامعاً للصفات السلبية . ومثلُ ذلك يُقال في مرادفه وهو وصف وَاحد .
واصطلحوا على أن أحدية الله أحدية واجبة كاملة ، فالله تعالى واحد من جميع الوجوه ، وعلى كل التقادير فليس لكُنْه الله كثرة أصلاً لا كثرة معنوية وهي تعدد المقوّمات من الأجناس والفصول التي تتقوم منها المواهي ، ولا كثرةُ الأجزاء في الخارج التي تتقوم منها الأجسام . فأفاد وصف) أحد (أنه منزه عن الجنس والفصل والمادة والصورة ، والأعراض والأبعاض ، والأعضاء والأشكال والألوان وسائر ما ينافي الوحدة الكاملة كما إشار إليه ابن سينا .
قال في (الكشاف) : (وفي قراءة النبي (صلى الله عليه وسلم)) الله أحد (بغير) قل هو (اه ، ولعله أخذه مما روي أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال من قرأ : (الله أحد (كان بِعَدْل ثلثثِ القرآن ، كما ذكره بأثر قراءة أبيّ بدون) قل (كما تأوله الطيبي إذ قال : وهذا

استشهاد على هذه القراءة .

وعندي إن صح ما روي من القراءة أن النبي (صلى الله عليه وسلم) لم يقصد بها التلاوة وإنما قصد الامتثال لما أمر بأن يقوله ، وهذا كما كان يُكثر أن يقول : (سبحان ربي العظيم وبحمده اللهم اغفر لي) يَتأول قوله تعالى : (فسبح بحمد ربك واستغفره ((النصر : 3) .

" صفحة رقم 617 "

جملة ثانية محكية بالقول المحكية به جملة : (الله أحد (، فهي خبر ثان عن الضمير . والخبر المتعدد يجوز عطفه وفصله ، وإنما فصلت عن التي قبلها لأن هذه الجملة مسوقة لتلقين السامعين فكانت جديرة بأن تكون كل جملة مستقلة بذاتها غيرَ ملحقة بالتي قبلها بالعطف ، على طريقة إلقاء المسائل على المتعلم نحو أن يقول : الحوزُ شرط صحة الحُبس ، الحوز لا يتم إلا بالمعانية ، ونحو قولك : عنترة من فحول الشعراء ، عنترة من أبطال الفرسان .

ولهذا الاعتبار وقع إظهار اسم الجلالة في قوله : (الله الصمد (وكان مقتضى الظاهر أن يقال : هو الصمد .

و) الصَمد (: السيد الذي لا يستغنى عنه في المهمات ، وهو سيد القوم المطاع فيهم . قال في (الكشاف) : وهو فَعَل بمعنى مفعول من : صَمَد إليه ، إذا قصده ، فالصمد المصمود في الحوائج . قلت : ونظيره السَّند الذي تُسند إليه الأمور المهمة . والفَلَق اسم الصباح لأنه يتفلق عنه الليل .

و) الصمد (: من صفات الله ، والله هو الصمد الحق الكامل الصمدية على وجه العموم . فالصمد من الأسماء التسعة والتسعين في حديث أبي هريرة عند الترمذي . ومعناه : المفتقر إليه كلُّ ما عداه ، فالمعدوم مفتقر وجودُه إليه والموجود مفتقر في شؤونه إليه .

وقد كثرت عبارات المفسرين من السلف في معنى الصمد ، وكلها مندرجة تحت هذا المعنى الجامع ، وقد أنهاها فخر الدين إلى ثمانية عشر قولاً . ويشمل هذا الاسمُ صفاتتِ الله المعنويةَ الإِضافية وهي كونه تعالى حيّاً ، عالماً ، مريداً ، قادراً ، متكلماً ، سميعاً ، بصيراً ، لأنه لو انتفى عنه أحد هذه الصفات لم يكن مصموداً إليه .

" صفحة رقم 618 "

وصيغة) الله الصمد (صيغة قصر بسبب تعريف المسند فتفيد قصر صفة الصمدية على الله تعالى ، وهو قصر قلب لإِبطال ما تعوّده أهل الشرك في الجاهلية من دعائهم أصنامهم في حوائجهم والفزع إليها في نوائبهم حتى نَسُوا الله . قال أبو سفيان ليلة فتح مكة وهو بين يدي النبي (صلى الله عليه وسلم) وقال له النبي (صلى الله عليه وسلم) أما آن لك أن تشهد أن لا إلاه إلا الله : (لقد علمتُ أن لو كان معه إلاه آخر لقد أغنى عني شيئاً) .

جملة : (لم يلد (خبر ثانٍ عن اسم الجلالة من قوله : (الله الصمد (، أو حال من المبتدأ أو بدل اشتمال من جملة) الله الصمد (، لأن من يصمد إليه لا يكون من حاله أن يلد لأن طلب الولد لقصد الاستعانة به في إقامة شؤون الوالد وتدارك عجزه ، ولذلك استدل على إبطال قولهم : (اتخذ الله ولداً (بإثبات أنه الغنيّ في قوله تعالى : (قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني له ما في السماوات الأرض ((يونس : 68) فبعدَ أن أبطلت الآية الأولى من هذه السورة تعدد الإِلاه بالأصالة والاستقلال ، أبطلت هذه الآية تعدد الإِلاه بطريق تولد إلاه عن إلاه ، لأن المتولِّد مساوٍ لما تولَّد عنه .

والتعدُّد بالتولد مساوٍ في الاستحالة لتعدد الإِلاه بالأصالة لتساوي ما يلزم على التعدد في كليهما من فساد الأكوان المشار إليه بقوله تعالى : (لو كان فيهما آلهة إلا اللَّه لفسدتا

((الأنبياء : 22) (وهو برهان التمانع) ولأنه لو تولد عن الله موجود آخر للزم انفصال جزء عن الله تعالى وذلك مناف للأحدية كما علمت آنفاً وبَطل اعتقاد المشركين من العرب أن الملائكة بنات الله تعالى فعبدوا الملائكة لذلك ، لأن البنوّة للإِلاه تقتضي إلاهية الابن قال تعالى : (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون ((الأنبياء : 26) .
وجملة) لم يولد (عطف على جملة) لم يلد (، أي ولم يلده غيره ، وهي بمنزلة الاحتراس سدّاً لتجويز أن يكون له والِد ، فأردف نفي الولد بنفي الوالد . وإنما قدم نفي الولد لأنه أهم إذ قد نَسب أهل الضلالة الولَد إلى الله تعالى ولم ينسبوا

إلى الله والِداً . وفيه الإِيماء إلى أن من يكون مولوداً مثل عيسى لا يكون إلاهاً لأنه لو كان الإِلاه مولوداً لكان وجوده مسبوقاً بعدم لا محالة ، وذلك محال لأنه لو كان مسبوقاً بعدم لكان مفتقراً إلى من يُخصصه بالوجود بعد العدم ، فحصل من مجموع جملة : (لم يلد ولم يولد (إبطالُ أن يكون الله والداً لِمولود ، أو مولوداً من والد بالصراحة . وبطلت إلاهية كل مولود بطريق الكناية فبطلت العقائد المبنية على تولد الإِلاه مثل عقيدة (زرادشت) الثانوية القائلة بوجود إلاهَيْن : إلاه الخير وهو الأصل ، وإلاهِ الشر وهو متولد عن إلاه الخير ، لأن إلاه الخير وهو المسمى عندهم (يزدان) فكَّر فكرةً سوء فتولد منه إلاه الشر المسمى عندهم
(أهرُمنْ) ، وقد أشار إلى مذهبهم أبو العلاء بقوله :
قَال أناس باطل زعمهم
فراقِبوا الله ولا تَزْعُمُنْ
فكَّر (يزدان) على غِرة

فصيغَ من تفكيره (أهْرُمُنْ)

وبطلت عقيدة النصارى بإلاهية عيسى عليه السّلام بتوهمهم أنه ابن الله وأن ابن الإلاه لا يكون إلاّ إلاهاً بأن الإلاه يستحيل أن يكون له ولد فليس عيسى بابن لله ، وبأن الإلاه يستحيل أن يكون مولوداً بعد عدم . فالمولود المتفق على أنه مولود يستحيل أن يكون إلاهاً فبطل أن يكون عيسى إلاهاً .

فلما أبْطَلَت الجملةُ الأولى إلاهية إلاه غير الله بالأصالة ، وأبْطَلَتْ الجملة الثانية إلاهية غير الله بالاستحقاق ، أبْطَلَت هذه الجملة إلاهية غير الله بالفرعية والتولد بطريق الكناية .

وإنما نفي أن يكون الله والداً وأن يكون مولوداً في الزمن الماضي ، لأن عقيدة التولد ادعت وقوعَ ذلك في زمن مضى ، ولم يدع أحد أن الله سيتخذ ولداً في المستقبل .

في معنى التذييل للجمل التي قبلها لأنها أعم من مضمونها لأن تلك الصفات المتقدمة صريحَها وكنايتها وضمنيَّها لا يشبهه فيها غيره ، مع إفادة هذه انتفاء

" صفحة رقم 620 "

شبيه له فيما عداها مثل صفات الأفعال كما قال تعالى : (إن الذين تدعون من دون اللَّه لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ((الحج : 73) .

والواو في قوله : (ولم يكن له كفؤاً (اعتراضية ، وهي واو الحال ، كالواو في قوله تعالى : (وهل يجازى إلا الكفور ((سبأ : 17) فإنها تذييل لجملة) ذلك جَزَيْنَاهم بما كفروا ((سبأ : 17) ، ويجوز كون الواو عاطفة إن جعلت الواو الأولى عاطفة فيكون المقصود من الجملة إثبات وصف مخالفته تعالى للحوادث وتكون استفادة معنى التذييل تبعاً للمعنى ، والنكت لا تتزاحم .

والكُفُؤ : بضم الكاف وضم الفاء وهمزة في آخره . وبه قرأ نافع وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر ، إلا أن الثلاثة الأولين حَققوا الهمزة وأبو جعفر سهَّلها ويقال : (كُفْء) بضم الكاف وسكون الفاء وبالهمز ، وبه قرأ حمزة ويعقوب ، ويقال : (كفواً (بالواو عوض الهمز ، وبه قرأ حفص عن عاصم وهي لغات ثلاث فصيحة .

ومعناه : المساوي والمماثل في الصفات .

و) أحد (هنا بمعنى إنسان أو موجود ، وهو من الأسماء النكرات الملازمة للوقوع في حيّز النفي .

وحصل بهذا جناس تام مع قوله : (قل هو الله أحد).

وتقديم خبر (كان) على اسمها للرعاية على الفاصلة وللاهتمام بذكر الكُفؤ عقب الفعل المنفي ليكون أسبق إلى السمع .

وتقديم المجرور بقوله : (له (على متعلَّقه وهو) كفؤاً (للاهتمام باستحقاق الله نفي كفاءة أحد له ، فكان هذا الاهتمام مرجحاً تقديم المجرور على متعلَّقه وإن كان الأصل تأخير المتعلَّق إذا كان ظرفاً لغواً . وتأخيره عند سيبويه أحسن ما لم يقتض التقديمَ مقتضضٍ كما أشار إليه في (الكشاف) .

وقد وردت في فضل هذه السورة أخبار صحيحة وحسنة استوفاها المفسرون . وثبت في الحديث الصحيح في (الموطأ) و (الصحيحين) من طرق عدة : أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : ( ) قل هو اللَّه أحد (تعدل ثلث القرآن) .

" صفحة رقم 621 "

واختلفت التأويلات التي تأول بها أصحاب معاني الآثار لهذا الحديث ويجمعها أربعة

تأويلات :

الأول : أنها تعدل ثلث القرآن في ثواب القراءة ، أي تعدل ثلث القرآن إذا قُرىء بدونها حتى لو كررها القارىء ثلاث مرات كان له ثواب من قرأ القرآن كله .

الثاني : أنها تعدل ثلث القرآن إذا قرأها من لا يحسن غيرها من سورة القرآن .

الثالث : أنها تعدل ثلث معاني القرآن باعتبار أجناس المعاني لأنّ معاني القرآن أحكام وأخبار وتوحيد ، وقد انفردت هذه السورة بجمعها أصول العقيدة الإِسلامية ما لم يجمعه غيرها .

وأقول : إن ذلك كان قبل نزول آيات مثلها مثل آية الكرسي ، أو لأنه لا توجد سورة واحدة جامعة لما في سورة الإخلاص .

التأويل الرابع : أنها تعدل ثلث القرآن في الثواب مثل التأويل الأول ولكن لا يكون تكريرها ثلاث مرات بمنزلة قراءة ختمة كاملة .

قال ابن رشد في (البيان والتحصيل) : أجمع العلماء على أن من قرأ : (قل هو اللَّه أحد (ثلاثَ مرات لا يساوي في الأجر من أحَيَا بالقرآن كله اه . فيكون هذا التأويل قيداً للتأويل الأول ، ولكن في حكايته الإِجماع على أن ذلك هو المراد نظر ، فإن في بعض الأحاديث ما هو صريح في أن تكريرها ثلاث مرات يعدل قراءة ختمة كاملة .

قال ابن رشد : واختلافهم في تأويل الحديث لا يرتفع بشيء منه عن الحديث الإِشكال ولا يتخلص عن أن يكون فيه اعتراض .

وقال أبو عمر بن عبد البر السكوت على هذه المسألة أفضل من الكلام فيها .

" صفحة رقم 623 "